آراء ومطارحات

« في أشياء ممّا أورده ابن هشام في باب الأدوات »

الدكتور محمد طاهر الحمصي

بين يدي البحث :

خطرت لي فكرة هذه المقالة منذ زمن، فقد قمت على تدريس الأدوات النحوية من كتاب (مغني اللبيب) في الجامعة أعواماً. وكنت في كلّ عامٍ أجدّد صحبة طال أمدها وتمكّنت روابطها بيني وبين ابن هشام مؤلف الكتاب، وكان يتكشّف لي في كلّ آنٍ عن عالمٍ نحرير، واسع المعرفة، عميق الفكرة، ثاقب النظرة، قويّ العارضة، واضح الحجة، محكم الرأي. غير أنه من جانب آخر كان يتراءى لي منه في أحيان قليلة اضطرابٌ في المنهج، وتقاصرٌ عن الإقناع، وعزوف عن امتحان الآراء. كان يعنّ لي شيءٌ هنا وآخر هناك أصرّح ببعضه، وأكتم بعضه، وأدوّن أقلّه، وأهمل أكثره. حتى إذا صحّ مني العزم على كتابة مقالة في هذا الشأن وأنا بعيد عن مصادري وأوراقي ومدوّناتي، لم أجد بدّاً من معاودة النظر في كتاب المغني. فخطرت لي أشياء ممّا كان يخطر، وغابت عني منه أشياء، واستجدّت لديّ أشياء أخر؛ فكانت هذه المقالة التي تتناول :

١ – قضية منهجية: تتجلى في إيراد المختلف من الأدوات في موضع واحد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

٢ – قضية نحوية عامة : تتمثّل في ربط فكرة الزيادة بمعنى التوكيد .

٣ – جملة من الأحكام النحوية المتفرّقة .

توطئة :

يعدّ كتاب (مغني اللبيب) من أجمع الكتب للأدوات النحوية وأغناها مادةً وأحسنها ترتيباً، أفرد لها ابن هشام الباب الأوّل من كتابه، ولم يجر على سُنّة من سبقه في حصر هذا النوع من التأليف فيما أطلقوا عليه (حروف المعاني)، كالرمّانيّ في كتابه (حروف المعاني)، والمراديّ في كتابه (الجنى الداني في حروف المعاني)، والمالقيّ في كتابه (رصف المباني في حروف المعاني)، ولكنّه توسّع فيه حتى شمل كثيراً من الأسماء والأفعال؛ ولهذا اختار كلمة (المفردات) في مكان حروف المعاني، فقال في مطلع كتابه :

«الباب الأوّل : في تفسير المفردات وذكر أحكامها. وأعني بالمفردات الحروف وماتضمّن معناها من الأسماء والظروف، فإنّها المحتاجة إلى ذلك. وقد رتّبتها على حروف المعجم ليسهل تناولها. وربّما ذكرتُ أسماء غير تلك وأفعالاً لمسيس الحاجة إلى شرحها»[1] .

وبلغ مجموع ماأثبته من (المفردات) اثنتين ومئة، ألزم نفسه في كل (مفردة) أن يذكر أقسامها وأوجهها النحوية وعملها ومعانيها السياقية، وأن يورد آراء العلماء وأدلّتهم، فيؤيّد بعضها، ويعترض على بعضها، ويكتفي بإيراد بعضها من غير تأييد أو اعتراض. ولاشكّ أنّ ابن هشام قد أفاد من عمل سابقيه في هذا الميدان، بل إنّ من يعارض عمل ابن هشام بعمل المراديّ في كتاب (الجنى الداني) يدرك بيسر ووضوح أنّ ابن هشام استعان بكتاب (الجنى) أيّما استعانة، وحذا حذوه في كثير من المواضع، وإن تجنّب أن يذكر

(١) مغني اللبيب / ١٧.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اسمه أو يشير إليه. على أنّ المادة التي سخّرها ابن هشام في هذا الباب لايضارعه في وفرتها كتاب آخر، هذا إلى عمق الفكرة وحسن التبويب وإحكام العبارة.

بيد أنّ ذلك كلّه لايجعل عمل ابن هشام محرَّماً على النقد؛ لأن (الجواد قد يكبو والصارم قد ينبو والنار قد تخبو)[٢]، كما لاينبغي لهذا النقد أن يغضّ من شأنه أو ينال من حسنه، لأن (ماطغى به قلمه، وزلّت به قدمه، مغتفرٌ في جنب ماقَرَّبَ من البعيد، وردَّ من الشريد، وأراح من التعب، وصيّر القاصي ينادي من كثب)[٣].

وما تتضمّنه هذه المقالة الوجيزة من نقد، إنما هو وجهة نظر ليس إلاّ. وما تطرحه من آراء لايعدو أن يكون مقترحات يؤخذ منها ويُرَدّ. وفوق كلّ ذي علمٍ عليم .

أولاً – قضية منهجية :

(إيراد المختلف من الأدوات في موضع واحد بسبب تشابه اللفظ)

وهذا خلل منهجيّ اعترى عمل ابن هشام في مواضع قليلة أقف عند موضعين منها :

١ – ذكر من أوجه (أَمْ) أنها تكون للتعريف، فقال :

«الرابع أن تكون للتعريف، نُقلت عن طيّئ وعن حِمْيَر، وأنشدوا :

ذاك خليلي وذو يواصلني يرمي ورائي بامْسهمٍ وامْسَلِمَهْ

..... وقيل إنّ هذه اللغة مختصّة بالأسماء التي لاتدغم لام التعريف

(٢) من مقدمة ابن هشام لكتابه / ١٣.

(٣) الموضع السابق (بتصرف يسير).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في أولها»(٤).

وواضحٌ أنّ (أم) هذه أداة تعريف تقوم مقام (ال) وأنّ همزتها همزة وصل، وأين منها (أم) المتصلة و (أم) المنقطعة؟. ولو ذكرها ابن هشام في عقب حديثه عن (ال) لكان ذلك أليق بها .

٢ – أورد من أوجه (عن) كونها حرفاً مصدريّاً، فقال :

«الوجه الثاني : أن تكون حرفاً مصدرياً، وذلك أنّ بني تميم يقولون في نحو (أعجبني أن تفعل) : عَنْ تفعل، قال ذو الرّمة :

أَعَنْ تَرَسّمتَ من خرقاءَ منزلةً ماءُ الصبابة من عينيك مسجومُ

يقال: ترسّمت الدار أي تأملتها.... وكذا يفعلون في (أنّ) المشدّدة فيقولون : أشهد عَنَّ محمداً رسول الله، وتسمّى عنعنة تميم»(٥).

وما ذكره ابن هشام هنا لايمكن أن يكون وجهاً من أوجه (عَنْ) يعدل وجهيها الآخرين وهما: كونها جارّة وكونها اسماً بمعنى جانب. وكان الأجدر أن يلحقه بحديثه عن (أن) المصدرية.

ومن عجبٍ أن يقع لابن هشام مثل هذا الالتواء في المنهج مع أنه تجنّبه في مواضع أخرى وعابه على غيره، فقد قال في عقب حديثه عن (إمّا) :

«ليس من أقسام (إمّا) التي في قوله تعالى: ﴿فإمّا تَرَيِنَّ من البشر أحداً﴾، بل هذه (إن) الشرطية و (ما) الزائدة»(٦).

وقال في عقب حديثه عن (إلاّ) :

«ليس من أقسام (إلاّ) التي في نحو (إلاّ تنصروه فقد نصره الله)، وإنما

(٤) المغني / ٧٠– ٧١ .

(٥) المغني/ ١٩٨– ١٩٩.

(٦) المغني/ ٨٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذه كلمتان: (إن) الشرطية و (لا) النافية. ومن العجب أن ابن مالك على إمامته ذكرها في شرح التسهيل من أقسام (إلاّ) »[٧].

ثمّ قال بعد ذلك :

«ليس من أقسام (ألاّ) التي في قوله تعالى : ﴿وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألاّ تعلوا عليَّ﴾ بل هذه كلمتان : (أن) الناصبة و (لا) النافية، أو (أن) المفسّرة أو المخففة من الثقيلة و (لا) الناهية ولا موضع لها على هذا»[٨].

وكان منهج ابن هشام يقتضي منه أن يقول في عقب حديثه عن (أم):

ليس من أقسام (أم) التي في قول الشاعر :

يرمي ورائي بامسهمٍ وامْسَلِمَهْ

لأنّ (ام) هذه لغة في (ال)، ولأنّ همزتها همزة وصل وتلك همزتها همزة قطع، ولأنّ (ام) هذه لاتنفصل عن الاسم فلا تكون كلمة بنفسها، أمّا تلك فهي كلمة بنفسها.

وأن يقول في آخر حديثه عن (عن) :

ليس من أقسام (عن) التي في قول ذي الرّمة :

أعن ترسّمت من خرقاء منزلةً

لأنّ هذه لغة لبني تميم في (أن) المصدرية، فالعين فيها مبدلة من الهمزة، فهي كلمة أخرى غير (عن) الجارة وغير (عن) الاسمية، لأن العين فيهما أصلية .

ثانياً – قضيّة نحويّة عامة :

(التسليم بأنّ التوكيد معنى ملازم لما حُكم بزيادته من الأدوات)

---

(٧) المغني/ ١٠٢ .

(٨) المغني/ ١٠٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التوكيد معنى ملازم للزيادة عند ابن هشام. فكلّ زائد من الأدوات يفيد التوكيد في رأيه، ولهذا تراه يُلحق التوكيد بالمعاني التي يحتملها بعض الأدوات. وممّا يجدر الالتفات إليه أنّ هذا المعنى الذي يلحّ عليه ابن هشام في غير ما أداة[٩] ليس معنىً يُستَشَفّ من سياق الكلام دائماً، بل هو معنى عقليّ في الغالب ارتبط بفكرة الزيادة في أذهان كثير من النحاة. فلا تُذكَر الزيادة حتى تُقْرَن بمعنى التوكيد، سواءٌ أكان السياق يحتمل هذا المعنى أم لم يكن. وما أكثر مواضع الزيادة التي يصعب تقدير التوكيد فيها .

وعند النظر في مواضع الزيادة نتبيّن أنّ التوكيد في أكثرها معنىً عقليّ محض لاسند له من دلالات السياق وقرائن الأحوال، وإليك عدداً من الأمثلة.

– ذكر ابن هشام معاني الأداة (إلى)، ثم جعل الثامن منها التوكيد، فقال:

«والثامن : التوكيد، وهي الزائدة، أثبت ذلك الفرّاء مستدلاًّ بقراءة بعضهم (أفئدةً من الناس تَهْوَى إليهم) بفتح الواو»[١٠].

وهذه الزيادة المزعومة قائمة على أنّ الفعل (يَهْوَى) يتعدّى بنفسه إلى المفعول، ومن هنا تغدو (إلى) التي فَصلت الفعلَ عن المفعول (الضمير) مقحمةً، ويكون التركيب مؤسَّساً على الاستغناء عنها. ولمّا حكموا بزيادتها حاولوا أن يقرنوا هذه الزيادة بمعنى ما، فاهتدوا من طريق العقل وحده إلى معنى التوكيد. ولا يخفى على المتبصّر في هذا الموضع أن التوكيد لم يستنبط من السياق ولادليل عليه من التركيب. فما غرض التوكيد هنا؟ وهل ينقص شيء من المعنى لو غُيّر التركيب فقيل : أفئدة من الناس تهواهم ؟

(٩) ينظر المغني/ ١٠٥– ١١٥– ١٤٤– ٢٢٥– ٢٨٤– ٣٢٧– ٤٢٥ .

(١٠) المغني/ ١٠٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

– ونقل ابن هشام عن أبي عبيدة وابن قتيبة زيادة (إذْ) للتوكيد، فقال:

«وذُكر لـ (إذْ) معنيان آخران، أحدهما: التوكيد، وذلك بأن تحمل على الزيادة، قاله أبو عبيدة وتبعه ابن قتيبة، وحملا عليه آياتٍ منها (وإذْ قال ربّك للملائكة)، والثاني: التحقيق»(١١).

– وذكر من معاني (في) التوكيد، فقال:

«العاشر: التوكيد، وهي الزائدة لغير تعويض، أجازه الفارسيّ في الضرورة، وأنشد:

أنا أبو سعدٍ إذا الليلُ دجا يُخال في سواده يرندجا

وأجازه بعضهم في قوله تعالى ﴿وقال اركبو فيها﴾»(١٢).

– وذهب إلى أنّ (لا) الزائدة تفيد تقوية الكلام وتوكيده، فقال:

«والثالث: (لا) الزائدة الداخلة على الكلام لمُجرّد تقويته وتوكيده، نحو ﴿مامنعك إذْ رأيتهم ضلّوا ألاّ تتبعني﴾، ﴿مامنعك ألاّ تسجد﴾، ويوضحه الآية الأخرى ﴿مامنعك أن تسجد﴾ ومنه ﴿لئلاّ يعلم أهل الكتاب﴾ أي ليعلموا...»(١٣).

ومن الواضح أنّ معنى التوكيد في مواضع الزيادة السابقة لم يرشح من السياق، وإنما هو استنتاج عقليّ مبنيّ على أن يكون للزيادة معنى خاصّ بها لئلاّ تكون عبثاً. ويتراءى لي أنّ اقتران التوكيد بالزيادة في أذهان النحاة مستنبط من قضية منطقية مرتّبة على الوجه الآتي:

(١١) المغني/ ١١٥– ١١٦.

(١٢) المغني/ ٢٢٥– ٢٢٦.

(١٣) المغني/ ٣٢٧.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قضية كبرى : تكثير اللفظ يفيد التوكيد

قضية صغرى : الزيادة تكثير للّفظ

نتيجة : الزيادة تفيد التوكيد

وقد نجد التوكيد في بعض الأدوات المحكوم بزيادتها مستشفّاً من السياق مدركاً بالحسّ لا بالمنطق كالتوكيد الذي تفيده لام التقوية – مثلاً – فإنّ تلك اللام تزاد لتوكيد علاقة العامل بمعموله نحو قوله تعالى : ﴿للذين هم لربّهم يرهبون﴾(١٤)، وقوله تعالى : ﴿إنْ كنتم للرؤيا تعبرون﴾(١٥)، وقوله تعالى : ﴿فعّالٌ لما يريد﴾(١٦).

ومثله التوكيد الذي تفيده (مِن) الزائدة الجارّة لألفاظ العموم، نحو (ماجاءني من أحدٍ) والمراد بالتوكيد هنا توكيد العموم. فالقول باقتران التوكيد بالزيادة في مثل هذه الحالات مسلَّمٌ به، لأنّ السياق يدلّ عليه والغرض يطلبه والصناعة تستقيم به، فلا مندوحة عنه. ولكنّ ذلك لايبيح لأحد أن يدّعي اقتران التوكيد بالزيادة في كلّ حالة وفي كلّ موضع، لأنّ اختلاف الدلالات يوجب اختلاف الأحكام.

وليس من شأن هذا النقد النحويّ الاعتراض على فكرة الزيادة عينها في المواضع التي لايستقيم فيها معنى التوكيد، بل الغرض لفت النظر إلى أنّ تلك المواضع مازالت تحتمل النقاش، وأنّ ماقيل فيها لايجوز أن يُحمل على أنّه حقائق لايأتيها الباطل.

ثالثاً – أحكام نحوية متفرّقة :

١ – خروج (إذا) عن الاستقبال :

(١٤) الأعراف/ ١٥٤ .

(١٥) الأعراف/ ١٥٤ .

(١٦) هود/ ١٠٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال صاحب (المغني) : «وذلك على وجهين : أحدهما أن تجيء للماضي كما جاءت (إذْ) للمستقبل في قول بعضهم، وذلك كقوله تعالى : ﴿ولا على الذين إذا ماأتوك لتحملهم قلت لاأجد ماأحملكم عليه تولّوا﴾ [التوبة/ ٩٢]، ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضّوا إليها﴾ [الجمعة/ ١١]. وقوله:

ونَدْمانٍ يزيد الكأسَ طيباً سَقيتُ إذا تغوّرت النجومُ

والثاني : أن تجيء للحال، وذلك بعد القَسَم، نحو ﴿والليل إذا يغشى﴾ [الليل/ ١] ﴿والنجم إذا هوى﴾ [النجم/ ١]. قيل : لأنها لو كانت للاستقبال لم تكن ظرفاً لفعل القسم، لأنه إنشاء لاإخبار عن قَسَمٍ يأتي، لأنّ قَسَم الله سبحانه قديم، ولا لكونٍ محذوف هو حالٌ من (والليل) (والنجم)؛ لأن الحال والاستقبال متنافيان. وإذا بطل هذان الوجهان تعيّن أنه ظرف لأحدهما على أنّ المراد به الحال، اهـ .

والصحيح أنه لايصحّ التعليق بـ (أقسم) الإنشائي، لأن القديم لازمان له، لاحال ولاغيره، بل هو سابقٌ على الزمان، وأنه لايمتنع التعليق بـ (كائناً) مع بقاء (إذا) على الاستقبال؛ بدليل صحة مجيء الحال المقدّرة باتفاق، كـ (مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً) أي مقدّراً الصيد به غداً، كذا يقدّرون، وأوضح منه أن يقال: مريداً به الصيد غداً، كما فُسّر (قمتم) في ﴿إذا قمتم إلى الصلاة﴾ [المائدة/ ٦] بأردتم»(١٧).

أقول : مجيء (إذا) للماضي لايُسلَّم به، والشواهد التي ذكرها ابن هشام يمكن تخريجها على غير وجه المضيّ. فقوله تعالى : ﴿ولا على الذين إذا ماأتوك لتحملهم...﴾ يتعلّق بحكمٍ بيّنته الآيتان السابقتان: ﴿وجاء المعذِّرون من الأعراب ليؤذَن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله، سيصيب

(١٧) المغني/ ١٢٩ – ١٣٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذين كفروا منهم عذابٌ أليم. ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ماينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفورٌ رحيم﴾ [التوبة/ ٩٠- ٩١].

فالحكم هو انتفاء الحرج عن الضعفاء والمرضى وذوي الفاقة في تخلّفهم عن الجهاد، ثم جاءت الآية التي هي موضع الاستشهاد لتضمّ إلى هؤلاء المشمولين بالحكم فريقاً آخر، هم الفقراء الذين رغبوا في الجهاد، ولكنّ الرسول – عليه السلام – لم يجد مايحملهم عليه فتخلفوا مضطرين وقد تملّكهم الأسى والحزن.

صحيح أنّ الآيات تضمّنت حكماً يتصل بحادثة مخصوصة قد وقعت. ولكنْ لّما كان هذا الحكم ينطبق على هذه الحادثة المخصوصة وحوادث أخرى مشابهة يمكن أن تقع في المستقبل، صارت (إذا) مع ماأضيفت إليه في الآية ظرفاً ممتدّاً إلى المستقبل غير محصور في الماضي.

والأمر في الآية الثانية ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضّوا إليها...﴾ أيسر. فالمراد – والله أعلم – زيادة تأنيب أولئك الذين تركوا الصلاة وانفضّوا عن الرسول – عليه السلام – طمعاً في التجارة وخوفاً من فوات فرصة الربح. ولهذا جيء بـ (إذا) لإبرازهم في صورة من يحصل منه هذا الفعل دائماً، في الماضي وفيما يأتي من الأزمنة. ولو استُعملت (إذْ) في هذا الموضع لنقصت الدلالة نقصاناً ظاهراً.

ويصلح هذا التخريج نفسه في الشاهد الشعريّ المذكور أيضاً، فالبيت في معرض الفخر بمنادمة من تُستحبّ منادمته على سبيل الاعتياد المتكرّر. فمن الحيف على المعنى أن تُحمل (إذا) فيه على معنى المضيّ، لأنّ الشيء إذا انقطع في الماضي بطل أن أن يكون عادةً، وذلك أنقصُ للفخر كما هو بيّن

معروف
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأمّا مجيء (إذا) للحال في الآيتين: ﴿والليل إذا يغشى﴾ ﴿والنجم إذا هوى﴾ فغير مقطوع به، لأنّ ابن هشام صحّح كون (إذا) في الآيتين للاستقبال على أن تكون ظرفاً لكون محذوف من الليل ومن النجم.

وبعد، فمقولة خروج (إذا) عن الاستقبال غير ثابتة، وما استدلّوا به من الشواهد يمكن تخريجه على أوجه تبقى فيها (إذا) للاستقبال فحسب.

٢ – إفادة (رُبَّ) معنى التكثير تارةً ومعنى التقليل تارةً أخرى :

قال صاحب المغني : «وليس معناها التقليل دائماً خلافاً للأكثرين ولا التكثير دائماً خلافاً لابن درستويه وجماعة، بل ترد للتكثير كثيراً وللتقليل قليلاً»(١٨).

أقول : الشاهدان اللذان أوردهما ابن هشام لإيضاح معنى التقليل في (رُبَّ) ضعيفان في هذا الباب. فأمّا الأوّل وهو قول أبي طالب في النبيّ ﷺ:

وأبيضَ يُستَسْقَى الغَمامُ بوجهه ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ(١٩)

فخارج عن هذا الباب لأنّ الواو فيه عاطفة لما بعدها على (سيّدا) في بيت سابق، هو:

وما تَرْكُ قومٍ لأبا لك سيّداً يحوط الذّمار في مكرّ ونائل

وقد نبّه المحققان الفاضلان على هذا الوهم الذي وقع لابن هشام في هذا الموضع. ولعلّ الذي قاد ابن هشام إلى الوقوع في هذا الوهم اشتباه صدر هذا البيت ببيت زهير :

وأبيضَ فيّاضٍ يداه غمامةٌ على معتفيه ما تغبُّ فواضلُهْ(٢٠)

(١٨) المغني/ ١٨٠ .

(١٩) المغني/ ١٨٠ .

(٢٠) ديوان زهير/ ٦٨. طبعة دار صادر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالواو في بيت زهير هي واو (ربّ)، وهو أنسب للاستشهاد.

وأمّا الشاهد الثاني، وهو قول الآخر :

ألا رُبَّ مولودٍ وليس له أبٌ وذي ولدٍ لم يلده أبوانِ
وذي شامةٍ غرّاء في حُرّ وجهه مجلّلةٍ لاتنقضي لأوانِ
ويكمل في تسعٍ وخمسٍ شبابه ويهرم في سبع معاً وثمانِ(٢١)

فقد تطرّق إليه الاحتمال؛ لأنّ روايته في الخزانة هي :

عجبتُ لمولودٍ وليس له أبٌ(٢٢)

هذا، وإن صحّت الرواية التي اعتمد عليها ابن هشام، فثمة مايقال في هذا الشاهد. ذلك أن سياق المعنى مؤسَّس – فيما أرى – على الإبهام، لاستثارة فطنة السامع ونباهته، والأبيات أشبه بالأحجية. فالمقصود بصدر البيت الأول عيسى عليه السلام، وبعجزه آدم عليه السلام، وبالبيتين الآخرين القمر. فأن تكون (ربّ) في هذا الشاهد للتكثير أنسب، لأنّ مع إيهام التكثير زيادة في الإبهام وإخفاء المراد.

ويلوح لي أنّ معنى التكثير في (ربّ) هو الأصل، وأن الشواهد المخالفة يمكن ردّها إلى هذا الأصل بلطف التأويل ودقة النظر. ففي قولهم – مثلاً –: ربّ إشارة أبلغ من عبارة، يمكن أن يكون القصد إلى أنّ مثل هذه الإشارة البليغة شيء متعارف مشهور يقع للناس كثيراً. وفي نحو قول الشاعر :

ربَّ يومٍ بكيت منه فلمّا صرتُ في غيره بكيت عليه

يصحّ أن يكون المراد أن مثل هذا اليوم ليس نادر الوجود في حياة الشاعر؛ لأن الشاعر قصد إلى إبراز فكرة تقلّب أحواله من سيّئ إلى ماهو

(٢١) انظر تخريج الأبيات في المغني/ ١٨١ (الحاشية) .

(٢٢) خزانة الأدب ١/ ٣٩٧ للبغدادي. بولاق ١٢٩٩ هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أسوأ منه، فسلك مسلك المبالغة محاولاً أن يوهم أن ذلك يحدث له كثيراً .

وفي قولهم في المثل: ربّ عجلةٍ تهب ريثاً، إذا حُمل المعنى على التكثير كان أليق بالغرض، فليس الغرض من هذا المثل إلاّ التحذير من التعجّل وتبغيضه إلى الناس .

٣ – إفادة (في) معنى الاستعلاء :

قال ابن هشام : «الاستعلاء نحو (ولأُصلبنّكم في جذوع النخل)، وقال :

هُمُ صلبوا العبديّ في جذع نخلةٍ [فلا عطستْ شيبانُ إلاّ بأجدعا]

وقال آخر :

بطلٌ كأنّ ثيابه في سرحةٍ [يُحْذَى نعالَ السبتِ ليس بتوءم]»(٢٣)

أقول : يمكن تأويل المعنى في الشاهدين الأولين تأويلاً يبقي على معنى الظرفية في (في)، ويكون المراد كما ذكر بعضهم تشبيه المصلوب لتمكّنه من الجذع بالحالّ فيه(٢٤). وهذا التأويل أنسب لمقام الوعيد والتهديد في الآية.

وأما قول القائل :

بطل كأنّ ثيابه في سرحةٍ

فمن الواضح أنه مقلوب، والمراد: كأنّ سرحةً في ثيابه، كناية عن عظم جثته. والقلب كثير في كلامهم، ومنه في النثر: (أدخلتُ القلنسوة في رأسي) و (عرضتُ الناقة على الحوض)(٢٥). ومنه في الشعر قول عروة :

---

(٢٣) المغني/ ٢٢٤ .

(٢٤) هو قول بعض البصريين. انظر المغني/ ١٥١ .

(٢٥) انظر المغني/ ٩١٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قديتُ بنفسه نفسي ومالي وما آلوكَ إلاّ ما أطيقُ[٢٦]

والمراد: فديت نفسه بنفسي.

وقول القطاميّ :

فلمّا أنْ جرى سِمَنٌ عليها كما طيّنتَ بالفَدَنِ السِّياعا[٢٧]

والمراد: كما طيّنت الفدن بالسياع. والفدن: القصر. والسياع: الطين.

٤ – إفادة (في) معنى (إلى) :

قال ابن هشام : «مرادفة (إلى)نحو ﴿فردّوا أيديهم في أفواههم﴾[٢٨]».

أقول : لايبعد أن تكون (في) في الآية على معنى الظرفية للدلالة على مبالغة المتحدَّث عنهم في إعراضهم، فكأنّهم أدخلوا أيديهم في أفواههم من شدّة الغيظ[٢٩]. والآية هي: ﴿جاءتهم رسلهم بالبيّنات فردّوا أيديهم في أفواههم وقالوا: إنّا كفرنا بما أُرسلتم به﴾. [إبراهيم/ ٩]

٥ – جواز حذف اللام الواقعة في جواب قسم مقدَّر قبل الشرط:

قال ابن هشام : «وقد تُحذَف [أي اللام] مع كون القسم مقدّراً قبل الشرط، نحو: (وإنْ أطعتموهم إنّكم لمشركون). وقول بعضهم ليس هنا قسم مقدّر وإنّ الجملة الاسمية جواب الشرط على إضمار الفاء كقوله :

مَنْ يفعل الحسنات اللهُ يشكرها

مردود، لأن ذلك خاصّ بالشعر»[٣٠].

---

(٢٦) نسبه ابن هشام إلى عروة، وليس في ديوانه. انظر المغني/ ٩١٣ .

(٢٧) في المغني/ ٩١٣ .

(٢٨) المغني/ ٢٢٥ .

(٢٩) انظر الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٣٦٨٢ للقرطبي– دار الغد العربي.

(٣٠) المغني/ ٣١١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقول : تقدير القسم هنا مسألة صناعية محضة لادليل عليها من اللفظ. ومن التكلّف تقدير مالا يدلّ اللفظ عليه. ولا يصحّ أن يُجْعَل تجرّد جواب الشرط من الفاء مع استحقاقه لها دليلاً على أنه جواب لقسم مقدّر. وكان يجدر بأولئك النحاة الذين سلّموا بتقدير القسم هنا – ومنهم ابن هشام – أن يبحثوا عن تخريج آخر لخلوّ جواب الشرط من الفاء في مثل الآية السابقة لا أن يتكلفوا تقدير قسم محذوف .

هذا، وتقدير القسم في كلّ المواضع التي ذكروها مسألة فيها نظر. فالقسم أسلوب تعبيريّ له صورٌ لفظية محدّدة متواضع عليها ذات دلالات عقيدية واجتماعية، فكيف يصحّ أن يقدّر القسم من غير أن يظهر له صورة لفظية في الكلام؟. وثمة اعتراض آخر على ابن هشام ومن ذهب هذا المذهب، فكيف يقبلون تقدير القسم وهو أسلوب ذو دلالة في حين ينكرون تقدير الفاء الرابطة لجواب الشرط وهي أقلّ من القسم لفظاً ودلالة، وبنيةُ الكلام أشدّ اقتضاءً لها ؟؟.

وبعد، فتلك أمور استوقفتني في باب الأدوات من كتاب مغني اللبيب حاولت أن أدلي فيها برأي. فإن أصبتُ فإنعامٌ من الله وفضل، وإلاّ، فعسى ألاّ أُحْرَمَ أجر المجتهد. على أنّ ماذكرته ليس هو كلَّ ماستوقفني لدى ابن هشام، وإني لأرجو أن يتسع صدر القارئ الكريم لمقالة أخرى في هذا الموضوع. وعلى الله قصد السبيل.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net